دراسات في الآداب الأجنبية

مكسيم غوركي

بقلم سلامة موسى

ولد جوركي عام ١٨٦٨ . ومات عام ١٩٣٦ .

ونفهم من هذين التاريخين انه امضى ٣٢ سنة في القرن التاسع عشر و ٣٦ سنة في القرن العشرين . ونفهم ايضا انه الف قبل الثورة الروسية (١٩١٧) وبعدها . فكان من دعاتها المكافحين المضطهدين . ثم كان بعد ذلك من ابنائها الموالين .

كان مولده فيما كنا نسميه قبل الحرب « نجني نوفجورود » ثم صارت بعد الثورة تسمى باسمه « جوركي » على نهر الفولجا الذي نجد ذكره يتكرر في مؤلفاته .

وكانت روسيا قد الفت الرق الاقطاعي . ولكن ذكراه كانت لا تزال عالقة بالاذهان ، ورأى جوركي في صباه ناسا كانوا ارقاء لهم اخلاق اقطاعية في الدرجات السفلى . ولكنه رأى ايضا بزوغ الحركة الصناعية والرواج التجاري في المدن حيث المصانع والمتاجر .

كانت روسيا في فترة الانتقال تصطدم فيها الاخلاق الاقطاعية التي تعتمد على الايمان والتواكل والمحافظة التي تقارب الجمود ، والاخلاق الجديدة ، اخلاق المتجر والمصنع .

وكلنا ، نحن ابناء القاهرة الذين امضوا بعض حياتهم في الريف ،نعرف الفرق بين الفلاح ، هذا الانسان القديم الذي يخرج علينا بأخلاق الفراعنة والذي تغلبت عليه الاخلاق الاقطاعية ، ثم هذا الانسان الجديد ،العامل في المصنع او المتجر والذي لا تخفى علينا اخلاقه الجديدة بل ايضا صاحب المصنع او صاحب المتجر ، هؤلاء جميعا قد تغلبت عليهم الاخلاق التجارية الصناعية . وهم يعيشون في المدينة الصاخبة المنبهة ، بينما الفلاحون يعيشون في القرى النائمة .

رأى جوركي القرية التي لم تكد تتخلص من اخلاقها الاقطاعية ، كما رأى المدينة الصناعية . ومع انه عرف ان مكانه هو المدينة ، هو الحضارة، هو الصناعة ، هو استقلال الشخصية ، هو العقل والتساؤل بدلا من الايمان والتسليم ، فانه مع ذلك وجد في المدينة ما يكره . واعظم ما كان يكره المتاجر او العقلية التجارية .

كان ظهور المصانع نتيجة لالغاء الاقطاع . وكذلك كان ظهور المتاجر وهنا ، تثب الى اذهاننا كلمة عصامي ، او الرجل الذي يصنع نفسه. ينشأ فقيرا ثم لا يزال يجد حتى يجمع الثروة الطائلة . ثم يحصل على لقب ويشيد كنيسة في بلدته .

هو رجل متحرر من قيود الاقطاع يجد جيوشا من العمال يختار منهم ويعين الاجور لعملهم . ويجمع الثروة بعرقهم وجهودهم .

ونحن نعرف العصاميين في بلادنا . ينشأ احدهم عاملا يقطع الحجر للبناء او ينقله الى القاهرة . ثم لا يزال يقتر على نفسه حتى يجمع ثمن عربة يجرها حمار او جواد للنقل . ثم يسرف في التقتير حتى يشتري عربة نقل كبيرة . ولا تمضي عليه السنوات القليلة حتى يكون مقاولا يبني العمارات ، والثروة الضخمة تأتي اليه عندئذ بلا عائق . لانه يستطيع ان يقطع من الاجور مقدارا يدخر ، ثم يتراكم ، ثم يعود « رأس مال » .

قبل اكثر من خمسين سنة قرأت كتابا ترجمه يعقوب صروف مؤسس مجلة المقتطف عن صمويل سميلز . وكان عنوانه « سر النجاح ».

وفي « سر النجاح » هذا ، قصص متوالية للعصاميين الانجليز الذين نهضوا من الفقر الى الثراء . كانوا عمالا فاصبحوا سادة يملكون المتاجر والمصانع ويستخدمون العمال ، قصص نهوض رأس المال في القرن التاسع عشر .

ولكن صموئيل سميلز لم يسأل وهو يروي تواريخهم : كيف جمعوا هذه الثروات ؟ وهل كانوا يجمعونها لو انهم كانوا يؤدون الاجور الحقة لعمالهم . كما لم يسأل يعقوب صروف هذين السؤالين عندما ترجم الكتاب .

ويشير جوركي الى هذا الكتاب بالذات ويسخر به ويعلن كراهيته للتاجر الذي اثرى باذلال العمال وحرمانهم مما كانوا في حاجة اليه من طعام او مسكن او كساء .

وفي جميع مؤلفاته تقريبا ، نجد هذه الكراهية للتاجر والصانع ،اي للرأسمالي صاحب المتجر او صاحب المصنع الذي يثرى بما يكسبه من عرق العمال .

*

عاش في روسيا ثلاثة من الادباء تقاربت حيواتهم حتى عاصر بعضهم بعضا فترة قصيرة او طويلة . هم :

دستوفسكي الذي مات في ١٨٨١

وتولستوي الذي مات في ١٩١١

وجوركي الذي مات في ١٩٣٦

وليس هناك اديب عصري بل حتى قاريء عصري مستنير في اي بقعة في العالم يجهل احد هؤلاء الثلاثة . فهم الذين عينوا طراز القصة الروسية واستنبطوا القيم الادبية الجديدة التي تعلمت منها اوروبا . وهم مع ذلك يختلفون . بل اختلافهم اكثر من اتفاقهم .

هم يتفقون في ان الادب ليس ترفا ذهنيا . وانما هو عذاب ذهني . في بذل المجهود. في البحث عن القيم . ويتفقون في ان الجمال ليس هدف الفن . وانما الهدف هو الحياة . ويتفقون في ان حياة الاديب جزء من ادبه . وحياته هذه هي مؤلفه الاول . ويتفقون في ان الانسانية هي الهدف الاول للاديب قبل الفن . انهم جميعا احترفوا الانسانية .

ان الذي يقرأ دستوفسكي يحس ان المؤلف لم يكن يستمتع بتأليف قصصه وانما كان يتعذب به . بل ان هذا العذاب ينتقل الينا ونحن نقرأ الصراع القائم بين ابطال قصصه . هؤلاء الابطال الذين يجمعون في نفوسهم ضميرين : ضمير القديس المتوجع وضمير المجرم المتوثب ، ضمير الانسان وشهوة الحيوان .

وقريب من دستوفسكي تولستوي. فان كليهما مسيحي الى نخاع عظامه. ولكن دستوفسكي يحب المسيح بقلبه واحساسه . اما تولستوي فيحبه بعقله . ولذلك انتهى دستوفسكي الى جملة نطق بها كلها هوس ، هي قوله « لو كان المسيح في جانب وكانت الحقيقة في جانب اخر لاثرت ان اكون في جانب المسيح على ان اكون في جانب الحقيقة » .

جملة رعناء ،نطق بها القلب المفتون بحب المسيح .

ولكن تولستوي طرد من الكنيسة لانه قال عن المسيح انه لا يوجد فيه غير رجل انساني عظيم . لا اكثر . وان السلوك المسيحي هو السلوك العلمي .

نظر بعقله ، وطردته الكنيسة الروسية من حظيرتها لانه استعمل عقله.

اما ثالثهم جوركي ، الذي يشترك معهما في النزعة الانسانية ، فانه يفترق منها بانه اديب الثورة .

وهذا اختلاف كبير ، بل خطير .

فان دستوفسكي يكاد يتمرغ في الالم ويلتذ بالمه . وتولستوي لا يجد للاصلاح غير المسيحية نطبقها على كل شئوننا الاجتماعية . ولكن جوركي يثور ثورتين : على المجتمع وعلى الحكومة .

وهو لا يؤمن بالمسيحية او باي دين اخر . ولكنه يؤمن بالانسانية ، بالانسان ، بالشعب ، بالعلم .

الفضائل عنده هي من صنع الانسان . والمخترعات والمكتشفات هي من صنع الشعب .

وهو اشتراكي شعبي في سياسته وادبه يكتب بلغة الشعب ، وتنطوي كل قصة له على رسالة اجتماعية .

وروسيا الى سنة ١٩١٧ كانت مدرسة مسحوقة بالقيصر والنبلاء ، بل حتى الكنيسة (وكلنا يذكر راسبوتين) . وفي هذه الظروف لم يكن مقر لكاتب انساني شعبي ان تكون رسالته ثورية .

هو ثائر على كل ما يقيد حرية الفكر من كتب العقائد المضللة .

وهو ثائر على الجهل والتواكل والاستسلام .

وهو ثائر على التجار والصناع الذين يجمعون الثروات بعرق العمال ويحرمونهم العيش اللائق .

وهو يدعو الى العلم والى الاشتراكية .

ولكنه ، قبل هذا وفوق هذا ، يدعو الى ان يحيي الانسان حياته كما يرسمها لنفسه مستقلا ابيا شجاعا .

الحياة عند جوركي هي اجمل ما في الكون . والحياة الحية الناهضة هي لباب الجمال . ويجب الا ننسحب من الحياة في نسك او عزلة . ويجب الا نقنع بالكفاف ونجبن عن الاقدام ونلجأ الى الكهوف ونختبيء .

وابطال جوركي هم العمال الذين نهضوا . ففسلوا رؤوسهم من الجهل والخرافات . وتعلموا وقرأوا . واصبحوا ثائرين .

ابطال قصصه يمثل كل منهم فترة من فترات الحياة عند جوركي نفسه . بل ان حياته لتختلط بمؤلفاته . ومن هنا يظهر ما فيها من صدق وكفاح.

حياة جوركي هي مؤلفاته . ومؤلفاته هي حياته .

فقد الف كتابا ، في ثلاث مجلدات ، عن تاريخ حياته نقراه ونحس في كثير من صفحاته اننا نقرأ احدى قصصه الواقعية . وجميع قصصه واقعية منتزعة من اختبلراته . ولكنهم ايضا خيالية يجري فيها الواقع بكل فظائعه ومآسيه كما يسرى فيها الخيال والحلم عن المستقبل الناضر والسعادة المنتظرة .

فانه يروى لنا السفالة والخسة والفظاظة في حياة الدهماء ، ولكنه الى ذلك يرسم لنا خطوط الامال في قدرة الانسان على التعقل والسيطرة على الطبيعة والالة .

عرف جوركي في طفولته وحياة الفقر المذل ، ورأى السفالات تحيط به. واحترف عددا من الحرف الوضعية كانت له بعد ذلك ذخيرة لشرح حيوات الناس والتعرف الى اهوائهم الدنيا وآمالهم العظمى . فقد عمل خادما ، ومشردا يلتقط الخرق ويصيد الطيور ، ثم بائعا جائلا يبيع التفاح ، ثم بستانيا ، ثم طباخا في بخارية على الفولجا ، ثم رساما معماريا ، ثم بائعا للايقونات المسيحية ، ثم خبازا ، ثم خفيرا للسكك الحديدية ، ثم وقادا للقاطرة.واخيرا عمل كاتبا عظيما ليس لروسيا وحدها بل للدنيا كلها.

من اين جاءته هذه القدرة على الكتابة ؟

ان هذه الاختبارات العديدة التي مرت به قد علمته . فعرف منها واقع الناس في معايشهم . ولكن من اين جاءت احلامه وكيف مهر في الكتابة وما الذي بعثه على الدرس وشوق اليه الثقافة ؟

كيف يمكن لملتقط الخرق وبائع التفاح الجوال في الشوارع ان يدرس افلاطون ويناقش اسبنوزا ويتفهم الادب الروسي او الالماني . ثم يبني من دراساته هذه آماله واحلامه في تغيير الواقع المؤلم ؟

الجواب : انه وصل الى ذلك باتصاله بالمنظمات الثورية في روسيا .

فان الثوريين الذين شرعوا منذ السنين الاخيرة في القرن التاسع عشر يفكرون في تغيير الحكومة القيصرية الى جمهورية اشتراكية كانوا يؤلفون الجمعيات ويؤلفون الكتب .

الكتب للتنوير والجمعيات للعمل .

وقرأ جوركي هذه الكتب . وتعب ودرس . وكافح اميته التي نشأ عليها .

وهو يحدثنا في المجلد الثالث عن الجامعات التي تعلم فيها والتي خرجته استاذا عظيما في الادب . وهو يسمي هذا المجلد « جامعاتي » .

ونقرأ هذا المجلد فلا نجد فيه اسما واحدا لاحدى الجامعات . وكيف يمكن لبائع التفاح وملتقط الخرق ان يدخل احدى الجامعات ؟

لا. انما كانت جامعاته منهج الثورة الذي طالبه ببرنامج بل ببرامج.

لقد اتصل بالمنظمات الثورية السرية وعرف منها ضرورة التغيير ، اي التغيير لوسائل العيش في المجتمع ونقلها من المبدأ الفردي الى المبدأ الاشتراكي مع تغيير حكومة القيصر الاوتوقراطية الى حكومة ديموقراطية اشتراكية .

هذا هو المنهج .

ولكن هذا المنهج بعث فيه الرغبة ، بل الشوق الى الدراسة . فكانت هنا جامعاته في الكتب . فدرس الاقتصاد ، والادب ، والعلم ، والتاريخ ،والدين والفلسفة.

جامعاته هي الكتب . واعظم ما اثر فيه ، كما سنرى ، هو العلم . العلم هو الذي جعله يحلم ويبني الامال . فيجعل قصصه لذلك واقعية خيالية .

ان جوركي احيانا يشمئز من حياة العمال ، من قذارتهم ، وسكرهم ، وضربهم لزوجاتهم ، وجهلهم، واستسلامهم للعقائد الخرافية،وخضوعهم ،

ولكنه مع ذلك يرى آفاق المستقبل المشرقة . فيحلم ويتخيل .

ويبنى لاحلامه وخيالاته على العلم الذي سيغير الدنيا .

وتمتاز « الجامعات » التي تعلم فيها جوركي بانها لم تفصله من الشعب في غرف دراسية تلقى فيها المحاضرات بعيدة عن السوق والمتجر والمصنع . اذ كان وهو خباز يحمل ويخبىء في صدره رسالة صغيرة عن علاقة الاجور برأس المال . او كتابا بالكوروبنكين عن زيادة الانتاج الزراعي حتى يصير الفقراء اغنياء .

ثم كانت هذه « الجامعات » ايضا تمتاز بانها لم تحمله على اضاعة وقته في دراسات ومناقشات موروثة عن القرون الوسطى او في التعليقات والتفسيرات لاشعار شكسبير او درامات الاغريق .

كان جوركي يقرأ ويدرس ويختار وفق حاجاته الذهنية . ولذلك كان يهضم ويمثل ولا يقيء ما قرأ ودرس .

كان احساسه بجاهلية شبابه يجعله يحس الظمأ للمعرفة .

ولكن تقلبه في الاعمال الوضيعة ، او ما نسميها وضيعة في نظامنا الاجتماعي ، جعله يحس احساس الشعب . وكانت لقمة العيش الجافة التي كان يحصل عليها بالعرق والتعب تحمله على التفكير في غيره ممن ياكلون مثل هذه اللقمة ولا يكادون يستسيغونها.

وحينما يكون الشعب - الاساس او الهدف للاديب ، يزدهر الادب وتزخر الثقافة . وذلك لان احوال الافراد في الشعب ، واهدافهم والوان البؤس او السعادة فيهم ، لا تنتهي.

ولذلك نحن نجد في ابطال القصص التي الفها جوركي شخصيات تتعدد وتتنوع . نجد الراهب في صومعته والمشرد السفاح ، والصبي المترف المدلل ، والشاعر ، والجاهل الذي يحاول ان يتعلم ، والصحفي البائس ، والثري المستبد ، والرجل المناهض .

وجوركي يحب اثنين من الرجال ، ويكره اثنين .

يحب الرجل الناهض الذي افاق من نومه وشرع يستطلع الدنيا ويدرس ويكبر حتى ولو كان رأسماليا . اي الرجل الذي ينفض نفسه من الكسل او يرتفع من الوهدة التي رماه فيها المجتمع . او الثائر الذي يحاول تغيير هذا المجتمع .

ثم هو لحبه للحرية والاستقلال والاستطلاع يحب شخصا آخر هو ما نسميه « المتشرد » فانه يؤثره على الثري الناعم الذي لا يكاد يعرف من الاستمتاعات في هذه الدنيا غير الطعام والشراب.كما يؤثره على التاجر الجشع الذي يجمع المال لمحض جمع المال ويتعس الالوف في سبيل ذلك بافقارهم وحرمانهم .

وواضح ان جوركي لايدعونا الى ان نكون « متشردين ». ولكنه يهدف الى المقارنة بين من يسميهم السادة الممتازين بالمال المستمتعين بالكسل والطعام والشراب ، وبين المتشردين العاطلين الذين يحملون في صدورهم عواطف فجة بدائية للثورة . فيهيمون . كما كان يهيم هو عندما استقر فترة من حياته في الصبا على صيد الطيور . وكان هذا العمل حرفة .

وهو في هذه المقارنة يكاد يقول لنا ان في الدنيا ما هو اهم من جمع المال . ان في الدنيا حقولا وطيورا ولذة الاستيقاظ في الصباح لرؤية الشمس في شروقها ، ومتعة الحب الخارج على القواعد ، والائتناس بالحديث الى الرجال والنساء في الحانات او عبر الطرق ، وكذلك التشرد بالتقلب في الحرف .

ثم يكره اثنين من الرجال . هذا العصامي الذي لا يهدف في حياته الا الى جمع المال اي الرجل الذي كان يمدحه صمويل سميلز ويقول اننا يجب ان نكون مثله . هذا الرجل هو الثمرة المرة للمبادأة الاقتصادية في الشعوب التي تحيا على المباديء الانفرادية وليس على المباديء التعاونية الاشتراكية . ومثل هذا العصامي لا ينجح إلا بسقوط العشرات ممن كانوا يبادرونه ويحاسدونه والام المئات من العمال الذين كانوا يخدمونه .

والشخص الثاني الذي يكرهه هو الرجل الذي لا ينهض . الجاهل الذي يرضى عن جهل ، والذليل الذي يرضى بذله ، الحيوان الذي يمارس اللذات الحيوانية ولا يعرف ما هو اعلى منها .

✶

حين يموت اديب ونجد الحرية لنقده وتقييمه دون ان نجرح كرامته ، نسأل هذا السؤال :

هل كانت المشكلات التي شغلته والف عنها كتبه مشكلات حقيقية تنبع من وجود الانسان ونظام المجتمع واستقلال الروح وارتقاء الشعب والحرية والمساواة والانسانية ، ام كانت مشكلات تافهة جوفاء كنا نلتفت اليها في حياته لانه كان يصيح ويصرخ في آذاننا حتى اذا مات نسيناها لتفاهتها ؟

ومثل هذا السؤال يمكن ان يسأله الناس في كل عصر وفي كل قطر .

ويمكن ان نسأله الان وبعد الان في مصر .

انت رجل ايها الاديب ، انت انسان ، انت تطلب الخير للشعب الذي تعيش فيه ، انت تفهم معنى التطور وقيمة الحرية ، حرية النفس في ان تسلك السلوك الذي تهواه وحرية العقل في ان يفكر في استقلال ويؤمن ببينة العلم بدلا من الايمان بالعقائد الموروثة . وانت من الشعب . فهل خدمت

دار الآداب تقدم :

في أزمة الثقافة المصرية

بقلم الناقد المجدد

رجاء النقاش

دراسات عميقة شاملة عن قضايا الثقافة المصرية الحديثة ومشاكلها

يصدر هذا الشهر

الشعب والانسانية والحرية والتطور والعلم ؟

*

البطل الاول في جميع قصص جوركي هو الرجل الناهض ، بل المرأة الناهضة ايضا .

هو الرجل الذي يقف لحظة في حياته ينظر الى الخلف والى الامام ، الى ماضيه والى مستقبله ، فيقول : كنت جاهلا فيجب ان اتعلم . كنت في غيبوبة فيجب ان انتبه. كنت عبدا للخرافات والاصطلاحات فيجب ان اتحرر. كنت انانيا فيجب ان اكون انسانيا . وكنت احيا بلا قصد بل بلا وعي فيجب ان أحيا عن قصد وعن وعي .

نحيا عن قصد ووعي في هذه الدنيا . هذا شيء عظيم خطير .

وقصة الام التي الفها عقب فشل الثورة الروسية ضد القيصر في ١٩٠٥ هذه القصة تدلنا على اهتمامات جوركي في ادبه وحياته . وكلاهما يندمج في الاخر . اجل . ان اهتماماته هي :

انهض . تعلم . اخدم الشعب . اعمل للمساواة والحرية . ارتفع من شئونك الشخصية الصغيرة الى الشان الانساني العظيم . امتلىء املا بنهوض الشعب ولا تيأس فان الحق والعدل سينتصران على الباطل والظلم .

لما فشلت ثورة ١٩٠٥ وذبحت حكومة القيصر الاف الاباء والامهات والابناء من الشعب سادت فترة من اليأس والغم قابلها جوركي بقصة «الام» كي يبعث الامل والشجاعة ويحيي الثورة التي خمدت .

ونحتاج الى القليل من النظر في هذه القصة.

ان القصة تبدأ بعامل تقدمت به السن . يعمل كثيرا في المصنع ويتعبد كثيرا . فاذا ترك المصنع وقصد الى بيته لم يجد شيئا ينسيه تعبه وياسه وفقره سوى الخمر يشربها حتى يغيب عن وعيه. هذا الوعي الذي لايطيقه.

ويموت الاب . ويخلفه ابنه ويقتدي به . يعمل في المصنع ثم يعب الخمر في المساء . وكان الدنيا بحضارتها وثقافتها وهمومها الانسانية واهتماماتها الاجتماعية اشياء بعيدة عن ذهنه لا يعرفها . وتتامل الام ابنها فترى فيه صورة الاب ومصيره ، اي الموت بعد الفقر والبؤس . فتناشد فيه ، مع البكاء ، رجولته وشرفه وتدعوه الى ترك الخمر . ولكلمات الام اكبر الاثر في التوجيه.

ويكف ابنها ، بافيل فلاسوف، عن الخمر. ويصحو نهاره وبعض ليله.

وعندما يصحو يفكر . وعندما يفكر يسخط . ثم يدفعه السخط الى التفكير مرة اخرى .

ويعرف زملاء له من المفكرين الذين يحملون في قلوبهم الهموم الوطنية والهموم الانسانية . ويقرأ كما يقرأون . يقرأ تلك الكتب الجميلة التي يؤلفها الحالمون الذين عرفوا الواقع ولم ييأسوا بل املوا في مستقبل زاهر تنهدم فيه منظمات الظلم والاستغلال والامتياز . فيجتمع مع هؤلاء الحالمين من العمال والاساتذة والطلبة يتذاكرون السواد الذي يعيشون فيه وينظمون الدنيا المشرقة القادمة .

وهو، بهذا الارتباط بهؤلاء الثائرين الحالمين، يكتسب قوة تنويرية عظيمة لذهنه الخام فيقرأ ويدرس ويصنع من نفسه رجلا جديدا . فلا يفكر في الخمر يشربها كي ينسى بها بؤسه وانما يفكر فيما يزيد يقظته من هذه الكتب .

وامه الجاهلة التي لم تعرف ايام زوجها غير الطبخ وتحمل الضرب وشراء الخمر ، هذه الام تتامل في استطلاع ابنها وهو يتعب ويقرأ ويخبيء الكتب المحرمة . ثم تحدس بعقلها البدائي وترى من الاجتماعات السرية التي يعقدها مع زملائه ، شيئا جديدا تكاد تفهم خطورته وخطره .

تفهم ان ابنها وزملاءه يخشون الشرطة وانهم يقومون بحركات قد تنتهي بهم الى السجن . فتمتليء خوفا على ابنها . ولكنها ، مع ذلك ، كانت تنظر الى هؤلاء الزملاء وتقشفهم في العيش واستقامتهم في السلوك وكياستهم في المعاملة ، فتمتليء اعجابا بابنها الذي لم ينشأ مثل ابيه سكيرا قذرا لا يعرف من الاصدقاء غير رفقاء الحانة ولا يفتح كتابا ولا يطيق اليقظة .

ان ابنها يعرف الطلبة والاساتذة والمهذبين. ولا يشرب الخمر .

ويدفعها حبها لابنها الى السؤال عن معنى الثورة بل معانيها والى الاهداف الانسانية الكبرى التي يحتضنها ابنها وزملاؤه والى البرامج التي يتتبعونها . وتتسلل الكلمات والافكار الى قلبها . ويدخل شعاع بعد شعاع من النور الى عقلها المظلم. فيستضيء .

وتشرع ، وهي في العقد الخامس او السادس من عمرها ، في تعلم القراءة .

لقد احالتها افكار الثورة الى انسان ناهض بعد نصف قرن من الظلام .

وتلقي حكومة القيصر القبض على ابنها لانه يخطب ويوزع المنشورات الثورية ضد القيصر . وتطرحه في السجن .

ولكن الام التي كانت جديرة قبل ذلك بان تصرخ وتولول ، اذ لم يكن لها في هذه الدنيا من امال سوى هذا الابن ، تتغلب على الصدمة وتنهض، وتتابع في جد ، الدعوة الى الثورة .

لقد تغيرت هذه المرأة وعرفت قصدا جديدا في الحياة .

كانت اما لابنها . فاصبحت، بمباديء الثورة التي تعلمتها ، اما لجميع الشباب في العالم .

روائع المسرح العالمي

سلسلة كتب تنتظم اروع المسرحيات العالمية واشهرها وتتناول من القضايا ما يهم كل مثقف عربي

(يشرف على ترجمتها الدكتور سهيل ادريس)

صدر منها

١	الايدي القذرة (نفدت)	تأليف	جان بول سارتر
٢	بستان الكرز	«	انطوان تشيخوف
٣	الحقيقة ماتت	«	عمانوئيل روبلس
٤	كانديدا	«	برناردشو
٥	الافواه اللامجدية	«	سيمون دوبوفوار
٦	البلور المحرق	«	تشارلز مورغان
٧	ثمن الحرية	«	عمانوئيل روبلس
٨	العادلون	«	البير كامو
	موتى بلا قبور	«	جان بول سارتر

تطلب هذه السلسلة من

دار العلم للملايين

ودار الاداب ــ بيروت

وكانت تقصر اهتمامها على شئون بيتها فاصبحت تهتم بالانسانية كلها. لقد اخذ القصد العام في حياتها مكان القصد الخاص .

انها توزع المنشورات التي تشرح للناس سوء حياتهم وعبء المظالم وعبث القيصر واعوانه بمصايرهم . وتقرأ وتفهم .

وهذه هي السعادة الحقيقية . السعادة التي نجدها في زيادة الوعي بان نتألم بل نتعذب حتى نعرف ونوجه ونصلح الدنيا . بل الواقع ان ما نعانيه من الم وعذاب يعود لذة سامية لاحساسنا باننا نؤدي واجبا انسانيا على المستوى العالي في حياتنا .

ويقبض على الام ، بعد القبض على الابن ، ويستمر القيصر وحكومته في متابعة خطط الاذلال للشعب . ولكن الى حين .

هذه هي القصة التي تشرح لنا كيف كان الثائرون في روسيا يعملون قبل ان تصل الثورة الى انفجارها الاخير في ١٩١٧ .

قصة الام هي الطراز الذي يمكن ان نقول ان سائر مؤلفات جوركي قد بنى على غراره . فاننا حين ننهض بالثورة على المظالم الاجتماعية والحكومية انما تنهضنا ايضا هذه الثورة .

الثائر ناهض يقظ بعد ركود ونوم .

الثائر يجد القصد في حياته بعد استسلام للقدر .

الثائر يفكر ويتعلم ويتطور .

الثائر يجد الدنيا والانسان والمجتمع والعلم موضوع اهتمامه بدلا من تلك الاهتمامات الصغيرة التي تمتليء بها النفوس الصغيرة من السعي وراء الثراء والتفوق والجاه .

لكي تستطيع ان تتذوق فلسفة وادب

الكاتب الفرنسي الكبير البير كامو

الحائز على جائزة نوبل للآداب ١٩٥٧

لا بد من أن تقرأ

كامو والتمرد

تأليف روبير دو لوبيه

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

يطلب من

دار الآداب ـ بيروت

ان جوركي واقعي يصف لنا احيانا الظلام الحالك في النفوس الحريصة التي افسدتها مظالم المجتمع . وهو ، مع انه يضيف الى هذه الواقعية ، في اغلب الاحوال ، املا مشرقا في المستقبل ، فانه لا يتعامى عن المصير المحزن واليأس الشامل اللذين يسودان الناس في بعض الاحوال .

وقصته : « مخلوقات كانت رجالا » هي قصة الانهيار النفسي او حطامات من الناس . يرتكبون الجريمة ، ويجرؤون على الفضيحة ،ويفرون من الزوجة والابناء ، ويهيمون لصوصا او مشردين ، ويعالجون بؤسهم بالخمر . ويحيون في ظلام لا يتخلله بصيص من النور او شعاع من الامل.

ويقف جوركي هنا عاجزا عن العلاج .

ان العلاج يقتضي ان يولد هؤلاء الساقطون ميلادا جديدا كما ولد بافيل فلاسوف على ايدي الشبان الثائرين الذين علموه قصدا جديدا في الحياة اعم واكبر من الاهداف الشخصية الصغيرة .

وحين لا يوجد هذا القصد الاعم الاكبر يكون الموت او الجنون .

ونحن نجد الموت بالخمر ، قبل الدفن الرسمي ، في هذه المخلوقات التي كانت رجالا . ونجد الجنون في قصة توما جورديف . فان هذه القصة ايضا لا تنتهي بالنور يشرق على الظلام . وانما نهايتها جنون ينطبق على العقل العاجز.

ولكن في كلتا القصتين نحس وطأة المجتمع التي تدفع بهذه «المخلوقات» الى الخمر ، كما تدفع بتوما جورديف الى الجنون .

نشأ توما في عائلة يرأسها ابوه التاجر الذي لم يكن يفهم من معاني الصلاح والخير والاستقامة في هذه الدنيا سوى تحقيق النجاح.

والنجاح عنده هو جمع المال . اليس هو تاجرا ؟

ويموت الاب . ويرثه الابن في ثروته المؤلفة من بخاريات تنقل البضائع في نهر الفولجا . ثم يشرع الشاب في التعرف الى الدنيا . فقد اهمل ابوه تعليمه ولم يلتفت الى تربيته . وكيف كان يمكنه ان يربيه مع انه هو لم يحصل على تعليم او تربية. كما ان امه كانت قد ماتت وهي في ميلاده.

وهو يتعرف الى الدنيا من اسفل . فيشرب الخمر وينزق نزق الشباب محروما من الصديق الناصح او الكتاب المنير . كانت كل ميزاته انه ثري.

بل كان له صديق هو شبينه . وكان للشبين مقام كبير في روسيا القيصرية .

ولكن هذا الشبين كان ايضا تاجرا ينظر الى الدنيا ويتخير منها كل ماله قيمة تجارية . والنجاح عنده هو الثراء .

والتاجر هو اكره ما يكره جوركي ، هذا التاجر الذي كثيرا ما يفخر بانه عصامي مجد مثابر . في اي شيء ؟ في جمع المال .

يجمع المال لمحض جمع المال . وهو يحتقر كل من لا يثري مثله ويتهمهم بانهم كسالى خائرون لا نفع منهم.

وتوما يتعرف الى صحفي منهار على دراية بالبؤس الاجتماعي . وهو ينهار ويدمن الشراب لانه يعجز عن الاصلاح .

والقليل الذي تعلمه توما من هذا الصحفي يحمله على التأمل فيمن حوله من امثاله الاثرياء . فيجد الخسة والسفالة والغدر تعلو الى المكانة الاجتماعية المرموقة . وينفجر في احدى الحفلات عقب الشراب الذي يحمله على ان يبوح بما في صدره . ولكن ثورته صبيانية غير ناضجة . طارئة مفاجئة ليس لها تبرير.

ولذلك يتألب عليه الاثرياء . وبما لهم من حظوة في المجتمع والحكومة

يبعثونه الى مستشفى للامراض العقلية . ثم يفرج عنه مجنونا يتسكع في الشوارع .

ان جوركي في قصة « المخلوقات التي كانت رجالا » تقم في قصة « توما جورديف » لا يجد مجالا للتفاؤل . وهو هنا واقعي لا اكثر .

***

ان ايمان جوركي بالانسانية لا ينطويعلى قدرة الانسان على الثورة على المظالم فقط . اذ هو يبني آماله في الثورة على انها تجمل بالعلم .

العلم الذي يحرر الانسان من خرافات القرون المظلمة .

العلم الذي يصنع البيئة والتجربة مكان العقيدة والتسليم .

العلم الذي حين نعرفه ونتحقق من ممكناته نقول : كنا عبيدا فصرنا احرارا .

العلم الذي نأمل به ان نرفع دخل العائلة المصرية في المتوسط منار بعين جنيها في العام الى الف جنيه والى الفي جنيه في العام .

العلم الذي يبصرنا بأجل الكون ونهايته . بلا خرافات موروثة .

في سنة ١٩٢٩ كتب جوركي مقالا ذكر فيه قصة وقعت في ١٩١٧ يقول فيها ان احد الجنود الذين اشتركوا في الثورة كان يتحدث الى احد اعدائها ، اعداء الثورة ، وكان يصف له ما سوف يقوم به النظام الجديد ويشرح الامال ويبني القصور . فكان عدو الثورة يتهكم به ويقول :

« انكم ستجعلون العالم كرويا كالبطيخة » .

فيقول الجندي : « اجل سنجعله كذلك » .

فيقول العدو : « وستحيلون الجبال وديانا » .

فيقول الجندي : « اجل . بلا شك اذا كانت هذه الجبال ستقف في طريقنا » .

ويقول العدو : « وستمسكون مجرى الانهار حتى تعود مياهها القهقرى » .

ويقول الجندي : « اجل . هذا ما سوف نفعل . سنوجه مياهها الى حيث نريد . ماذا يضحكك في هذا ؟ » .

ويزيد الجندي على ذلك فيقول « لا نحتاج الا الى الوقت الذي يعيد الى الناس عقولهم . وعندئذ ستنحنون وتشكروننا » .

ما الذي كان يقصده الجندي بهذه الاجابات ؟

كان يقصد ان الدنيا ستتغير بقدرة الانسان . بالعلم .

وايمان جوركي بالعلم كبير . كتب في ١٩١٢ يقول :

« ان العلم قد اصبح المركز العصبي للارض »

وفي ١٩٣٥ كتب يقول عن استخدام العلم في روسيا :

« ان الشعب يوجد علاقات جديدة بين الانواع المختلفة من المادة . وبذلك تتغير الدنيا » .

★

الفن هو شكل ومضمون .

اما المضمون عند جوركي فقد ذكرته . وهو يتلخص في الايمان بعظمة الانسان والامل في مستقبله العظيم باستخدام العلم . وليست الفضائل عنده من صنع الحكومات او الايمان او الحكماء وانما هي من صنع الشعب .

وهو مثل جميع الادباءوالعظماء في التاريخ يجد ان الانسان فيصميمه نبيل ، جميل ، طيب ، وانما يفسده الفقر والظلم والجهل . وانالاعوجاج يعود الى مظالم المجتمع وليس الى فساد اصيل في نظرة الانسان .

هذا هو مضمون الفن عند جوركي . والان ما هو الشكل ؟

وانا اجيب على هذا السؤال بسؤال آخر هو : هل لنا الحق بعد ان عرفنا المضمون ان نسألعن الشكل

انا لا اسأل هذا السؤال لان المضمون عند جوركي يستغرق كل ذهني .

***

فيا حدى الدرامات التي ألفها برنارد شو يقف احد الاشخاص ويندفع في نقاش يبدي فيه غضبه من اولئك المؤلفين الذين تباع مؤلفاتهم .فاذا فتحت كتابا لهم وشرعت تقرأ وجدت ما يمسك من هموم ومشكلات ومآسي يعرضها عليك المؤلف فتحزن وتبتئس او تسخط وتلعن .

ويقول هذا الشخص ان المؤلف لهذا الكتاب تجب مقاضاته واسترداد ثمن الكتاب منه لانه باعه سلعة مغشوشة . اذ هو يفهم من اقتناء الكتاب ما ان مؤلفه يرفه عنه ويلهيه ويسليه ويتيح له ان يقضي سنة سعيدة يقرأ فيها عن الحوادث الطريفة في الاسلوب العذب . اما اذا فعل العكس وعرض عليه المشكلات الاجتماعية التي تحزنه فانه يعد غشاشا اخذ ثمن الكتاب بغير حق .

وكثير من قراء الصحف والكتب يطلبون اللهو والتسلية فيما يقرأون . ويجدون من يزودونهم بما يطلبون . وهم يبقون على هذه العادة طيلة حياتهم . ضمائرهم منومة في غيبوبة كما ان عقولهم مقفلة لا تستنير.

ولكن هناك نوعا آخر من الكتب المرة يؤلفها الكاتب المر الذي لا يختار لك ما يحلو وينوم ويخدر ولا يستهدف العبارة الانيقة او الاسلوب العذب لانه انما يعالج شأنا اعظم من حلاوة التعبير او لذة النادرة او طرافة النكتة .

انه يعالج المشكلات الخطيرة للمجتمع والضمير ولا ينفك يثير الغبار ويحفر عن العفن المختبيء ويفضح السرقة والغدر ويحض على الثورة على المظالم . بل احيانا يتعسك لانه يجعلك تقف على ما فيك انت من تفاهة وتراخ او استهتار . وانت تخرج بعد قراءتك له ونفسك مرة قد ازدادت الدنيا مشاكل في وجهك بدل ان تنقص . وقد ازددت انت احساسا بنقصك واهمالك . فانت تغضب وتسخط او تحزن وتبتئس . اجل . ولكنك تستنير وتستيقظ ولعل يقظتك هذه تكون وسيلة لان تتغير وتتطور وترتقي في تقويم نفسك وزيادة انسانيتك واصلاح مجتمعك .

وليس هناك كاتب عظيم الا وتحس المرارة فيما يكتب . وهذا هو الشان في برنارد شو على الرغم من نكاته التي يضحكنا بها حتى لا نبكي. وهذا هو الشان ايضا فيتولستوي ودستوفسكي وفولتير ورينان .وذلك لانهم يعرفوننا بالاحزان والمآسي والمشكلات التي تحيط بنا والتي نغفل عنها ذاهلين في لهونا .

كان مكسيم جوركي يسمى في ورقة ميلاده اليكزاي بيشكوف . ونشأ على هذا الاسم الى ان وجد له قلما يشرح ما كان يعانيه ابناء وطنه من مآسي ومظالم وقذر وعفن . فشرع يشرحها ويبسطها في مقالات وقصص مرة مؤلمة . واتخذ لذلك اسم مكسيم جوركي .

وكلمة « جوركي » تعني في لغته « المر » .

لقد عرف رسالته في هذه الدنيا وعرف انه كاتب مر يعلم قراءه ويقسو عليهم حتى يستيقظوا . ونحن نقرأه لا لنلهو ولكن لنتألم ونتنبه ونزداد ذكاء ورجولة .

القاهرة

سلامه موسى